علوم القدماء عند العرب

ولا سيما فى القرن الخامس للهجرة بمصر

للدكتور يوسف شخت

أستاذ الفلسفة بكلية الآداب

أجمع علماء الشئون الشرقية على أن أحد أركان المدنية الاسلامية راجع إلى المدنية الاغريقية فى آخر مراحلها

فلم يكد العرب يشتركون فى تدعيم صرح تلك المدنية العظيمة إلا بلغتهم ودينهم. أما معظم المواد الأخرى فهو مأخوذ من ذلك التراث المجيد الذى تركه اليونان والذى قد توطن فى البلاد الشرقية منذ عصر الاسكندر ذى القرنين. ثم جاءت الدولة العربية فأكملت توطن العلوم والآداب الاغريقية فى الشرق الأدنى، ومكنتها من الازهار فى تلك المنطقة الرحبة التى احتضنتها فى دائرة حدودها السياسية. فنجد أن حركة ترجمة الكتب اليونانية فى الفلسفة والعلوم الطبيعية والطب التى كانت قد بدأت فى تلك البلاد قبل فتح العرب لها قد نشطت إلى حد بعيد فى آخر القرن الثانى وفى القرن الثالث للهجرة. ولما كانت لغة التراجم الأولى هى اللغة السريانية فانها بهذا الوضع بقيت الوسيط بين تراث اليونان وبين مدنية الاسلام كما كان معظم المترجمين من النصارى النسطوريين وفى مقدمتهم الحكيم الفيلسوف حنين بن اسحق (١٩٤ - ٢٦٠) الذى كان يشتغل « فى بيت الحكمة » ذلك المعهد العلمى الذى أسسه المأمون الخليفة العباسى ببغداد لترجمة كتب العلوم. حنين هذا هو الذى خلق المركز الرائع لآراء جالينوس فى القرون الوسطى فى الشرق ومنه إلى الغرب

ويشهد بالمجهود العظيم الذى بذل فى ترجمة الكتب اليونانية أن الخلفاء أنفقوا على الرحلات للبحث عن مخطوطات قيمة، وأن حنينا، كما أوضح بنفسه لم يكتف بأصل واحد وإنما كان يراجع بقدر الامكان لا أقل من ثلاث نسخ ليستطيع بمقارنتها الحصول على متن صحيح

كانت هذه أى - دورة التراجم - مرحلة استعداد، وتبعها فى القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الدور العظيم للعلوم الطبيعية والطبية فى بلاد الاسلام. وجد علماء المسلمين أنفسهم بعدئذ على أساس متين من العلوم اليونانية مضافا إليها بعض نتائج دراسات الفرس والهنود، وبدأوا يضيفون إلى هذا التراث من مبتكراتهم. وفى الوقت نفسه فقد المسيحيون مركز احتكارهم (أوكاد) لهذه العلوم وارتفع إلى مستواهم المسلمون

إن أبرز ما فى ذلك العصر من الشخصيات العلمية الفذة ثلاثة: محمد بن زكرياء الرازى (المتوفى سنة ٣١١) وهو أكبر أطباء العالم الاسلامى وأحد أطباء الدنيا الخالدين، وحسين بن عبد الله بن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨) وكان فيلسوفاً وباحثاً طبيعيا له أكبر الأثر فى أوربا بصفته وسيطا لنقل الطب الاسلامى إليها بمؤلفه الكبير المسمى بالقانون، وأبو ريحان محمد بن أحمد البيرونى (٣٦٢ - ٤٤٠) وهو أكبر الباحثين الطبيعيين فى دائرة الحضارة الاسلامية وأبدعهم تفكيراً ومنهجا.

ما أجود ثقافة هذا الرجل الخوارزمى العجيب وإحاطته بمختلف العلوم والفنون من يونانية وعربية وإسلامية، كما يظهر من مقدمة كتابه فى الصيدلة إذ يقول:

« وكل واحدة من الأمم موصوفة بالتقدم فى علم ما أو عمل، واليونانيون منهم قبل النصرانية موسومون بفضل العناية فى المباحث وترقية الأشياء إلى أشرف مراتبها وتقريبها من كمالها. ولو كان ذيسقوريذس فى نواحينا، وتصرف جهده على تعرف ما فى جبالنا وبوادينا، لكانت تصير حشائشها كلها أدوية، وما يجتنى منها بحسب تجاربه أشفية، ولكن ناحية المغرب فازت به وبأمثاله وأفازتنا بمشكور مساعيهم علما وعملا. وأما ناحية المشرق فليس فيها من الأمم من يهتز لعلم غير الهند، ولكن هذه الفنون خاصة عندهم مؤسسة على أصول مخالفة لما اعتدناه من قوانين المغربيين، ثم المباينة بيننا وبينهم فى اللغة والملة والعادات والرسوم وإفراطهم فى المجانبة بالطهارة والنجاسة تزيل المخالطة عن البين وتفصم عرى المباحثة. ديننا والدولة عربيان وتوأمان يرفرف على أحدهما القوة الالهية وعلى الآخر اليد السماوية ... وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت فى الأفئدة، وسرت محاسن اللغة فى الشرايين والأوردة، وإن كانت كل أمة تستحلى لغتها التى ألفتها واعتادتها واستعملتها».

لم ينحصر تقدير العلوم اليونانية مثل هذا فى فئة معينة من

العلماء ، بل كان منتشرا بين الجميع طول القرن الرابع .

ها هى ذى بغداد بمدرستها الفلسفية الطبية التى هى خليفة مدرسة الاسكندرية المشهورة ، ولا يصعب علينا اقتفاء أثر انتقالها من الاسكندرية إلى بغداد عن طريق انطاكية وحران . ومن كبار العاملين بها فى القرن الرابع المترجم المسيحى أبو بشر متى بن يونان (المتوفى سنة ٣٢٨) ، وأبو نصر محمد الفارابى الفيلسوف الاسلامى (المتوفى سنة ٣٣٩) ، وتلميذه الفيلسوف المسيحى يحيى بن عدى (المتوفى سنة ٣٦٤) ، والباحث المحقق أبو الحسن المسعودى (المتوفى سنه ٣٤٦) ، وغيرهم من الفضلاء . وقد خلد الأديب أبو حيان التوحيدى (المتوفى بعد سنة ٤٠٠) فى مؤلفه المسمى «بالمقابسات» ذكر مجالس أبى سليمان السجستانى المنطقى (المتوفى بعد سنة ٣٩١)

فكان القرن الرابع هذا أزهى عصر لدرس العلوم اليونانية فى الحضارة الاسلامية ، واستمرت تلك الدراسات وازدهرت فى القرن الخامس أيضا خصوصا فى بغداد ، مع امتداد أشعتها إلى بلاد أخرى ولا سيما إلى مصر .

نتمنى أن نبحث ذلك الدور الأخير لنفوذ التفكير اليونانى فى الشرق الأدنى بمناسبة مخطوط محفوظ فى إحدى مدارس الموصل يشمل مناظرة دارت بين طبيبين فيلسوفين ، وإن كانا دون أولئك الفحول درجة إلا أنهما شغلا مكانا جليلا فى تاريخ الطب والعلوم الطبيعية فى عالم الاسلام . هما أبو الحسن المختار ابن بطلان من نصارى بغداد ، وعلى بن رضوان المصرى . تتلخص مناظرتهما فى أن كل واحد منهما كان يرغب فى التدليل على علو كعبه فى علوم القدماء ، وعلى مقدرته عن الآخر وبروزه فيها عليه . فإنا إن اطلعنا على تراجم حياتهما كما جاءت فى تاريخ الحكماء لابن القفطى ، وفى عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، نرى أن شخصية كل واحد منهما ليس بينها وبين شخصية الآخر أى تشابه ، حتى ليخال القارىء أنه يستحيل عليهما أن يكونا صديقين ؛ على أن تنافسهما ربما يرجع أيضا إلى غيرة كل منهما من صاحبه فى صناعة الطب .

درس ابن بطلان الطب والفلسفة فى الكرخ (حى من بغداد) على أشهر الأساتذة ، وأكثرهم من النصارى ، وتدل مؤلفاته على أنه لم يكن متطببا فقط ، بل تبحر أيضا فى الآداب العربية والعلوم الاسلامية ، كما قال عنه ابن أبى أصيبعة : « وكان ابن بطلان أعذب ألفاظاً (أى من ابن رضوان) وأكثر ظرفا وأميز فى الأدب وما يتعلق به . ومما يدل على ذلك ما ذكره فى رسالته التى رسمها «بدعوة الأطباء» . فى هذا الكتاب يحمل ابن بطلان على الفشارين المدعين بالطب ، ويظهر فسادهم ومضارهم الشائعة ذاك الحين .

يغلب على الظن أن ابن بطلان لم يكن شابا عند ماترك بلدته التى حرمت عليه العودة اليها فى مستهل شهر رمضان سنة ٤٤٠ متجهاً الى رحلة طويلة ماراً بالأنبار فالرحبة فالرصافة فحلب حيث مكث زماناً ، ثم واصل السفر الى انطاكية فاللاذقية فيافا حتى جاء مصر حيث مكث ثلاثة أعوام تعرف فيها بابن رضوان . ثم غادر مصر بعدئذ الى القسطنطينية ثم عاد منها فى آخر الأمر إلى انطاكية . قال ابن القفطى : « فأقام بها وقد سئم كثرة الأسفار ، وضاق عطنه عن معاشرة الأغمار ، فغلب على خاطره الانقطاع فنزل بعض أديرة انطاكية وترهب وانقطع الى العبادة إلى أن توفى بها » . وكانت وفاته - خلافاً لما زعم ابن القفطى - بعد سنة ٤٥٥ بزمان لأنه قد أهل لبناء بيمارستان انطاكية فى السنة المذكورة . وعند ما كان فى مصر أرسل ابن بطلان الى المؤرخ الكاتب البغدادى هلال بن المحسن الصابى كتاباً مفصلا عن رحلته ، دل على دقة ملاحظته وعنايته بكل مارآه ، كما أنه لا يزال هذا الكتاب مرجعاً جغرافياً تاريخياً مفيداً للنواحى التى زارها ابن بطلان ، فلذلك أورد ياقوت الحموى فى كتابه المسمى بمعجم البلدان كثيراً من كلام ابن بطلان . ودليلا على كل هذا نذكر شيئاً من وصفه لمدينة اللاذقية . قال : « وهى مدينة يونانية لها ميناء وملعب وميدان للخيل مدور ، وبها بيت كان للأصنام وهو اليوم كنيسة ، وكان فى أول الاسلام مسجدا ، وهى راكبة البحر وفيها قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه وآذان فى أوقات الصلوات الخمس ، وعادة الروم إذا سمعوا الآذان أن يضربوا الناقوس ، وقاضى المسلمين الذى بها من قبل الروم » .

أما ماذكره من أخبار الروم والمسلمين فهو إيضاح للحالة كما كانت . فهى دورة الانحلال والضعف السياسى للدولة الاسلامية ، قد أصبحت البلاد التى كانت تتبع خلافة بغداد مستقلة ، وقامت خلافة الفاطميين بمصر ، أضف إلى هذا تفشى الوباء والمجاعات باقطار عديدة وموت كثيرين من رجال العلم أحس الباقون منهم بفقدانهم وبالخلوة من بعدهم . وإنه لما يسر ان نلاحظ ان تلك البلايا كلها لم تستطع ان تقطع النهوض العلمى العظيم ولا اتصال

العلماء بعضهم ببعض برحلات علمية وراء كل الحدود السياسية ولا ارتباطهم بروابط الصناعة رغما عن اختلاف العقائد الدينية

على أن ابن بطلان النصرانى هذا الذى كان محترماً ومقدراً عند زملائه المسلمين قاسى متاعب من المسيحيين أنفسهم ؛ فانه « لما دخل إلى حلب وتقدم عند المستولى عليها سأله رد أمر النصارى فى عبادتهم اليه ، فولاه ذلك ، وأخذ فى إقامة القوانين الدينية على أصولهم وشروطهم فكرهوه ، وكان بحلب رجل كاتب طبيب نصرانى ... يحمل عليه نصارى حلب فلم يمكن ابن بطلان المقام بين أظهرهم ، وخرج عنهم ... وللحلبيين النصارى فيه هجو قالوه عند ما تولى أمرهم » (مختصر من كلام ابن القفطى)

قال ابن أبى أصيبعة : « وتوفى ابن بطلان ولم يتخذ امرأة ولا خلف ولدا ، ولذلك يقول من أبيات :

ولا أحد إن مت يبكى لميتى سوى مجلسى فى الطب والكتب باكيا

كان ابن رضوان على النقيض لابن بطلان فى اكثر مزاياه ؛ فلم يكن لابن رضوان فى صناعة الطب معلم ينتسب اليه ، ولم يغادر نواحي القاهرة مرة ، وكان معجباً بنفسه طماعا بخيلا ، لما نقد ماله ذهب عقله ، ولكنه مع ذلك كله لم يخل من خلق وعقل يحملاننا على العطف عليه والاعجاب به . هذا ما يمكننا تا كيده عن سيرة حياته : ذكر ابن أبى أصيبعة شيئاً غير قليل منها .

كان مولد ابن رضوان بالجيزة وكان أبوه فراناً ، قال : « فلما بلغت السنة السادسة أسلمت نفسى فى التعليم ، ولما بلغت السنة العاشرة انتقلت إلى المدينة العظمى وأجهدت نفسى فى التعليم . ولما أقمت أربع عشرة سنة أخذت فى تعليم الطب والفلسفة ولم يكن لى مال أنفق منه فلذلك عرض لى فى التعليم صعوبة ومشقة ، فكنت مرة أتكسب بصناعة القضايا بالنجوم ، ومرة بصناعة الطب ، ومرة بالتعليم . ولم أزل كذلك وأنا فى غاية الاجتهاد فى التعليم إلى السنة الثانية والثلاثين ، فانى اشتهرت فيها بالطب وكفانى ما كنت أكسبه بالطب ، بل وكان يفضل عنى إلى وقتى هذا ، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين » أما ابن القفطى فيقول « وكان فى أول أمره منجما يقعد على الطريق ويرتزق لا بطريق التحقيق كعادة المنجمين ، ثم قرأ شيئاً من الطب وشيئاً من المنطق وكان من المغلقين لا المحققين . ومع هذا تتلمذ له جماعة من الطلبة وأخذوا عنه ، وسار ذكره ، وصنف كتباً لم تكن غاية فى بابها ، بل هى مختطفة ملتقطة مبتكرة مستنبطة . فاما تلاميذه فقد كانوا ينقلون عنه من التعاليل الطبية والأقاويل النجومية والألفاظ المنطقية ما يضحك منه إن صدق النقلة » .

على أنه إذا اعتبره ابن أبى أصيبعة أطب من ابن بطلان وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها ، فربما صح حكمه بالنسبة لمهارته الطبية ، إذ استشاره بعض ملوك مكران كتابة . أما فى الفلسفة والأدب فلا تجد سبيلا إلى اعتباره متكافئاً مع ابن بطلان كما يظهر من مؤلفاته . رغماً عما يذكره عن نفسه فى قوله : « وأما الأشياء التى أتنزه فيها فلأنى فرضت نزهتى ذكر الله عز وجل وتمجيده بالنظر فى ملكوت السماء والأرض ؛ وكان قد كتب القدماء والعارفون فى ذلك كتباً كثيرة رأيت أن أقتصر منها على ما أنصه من ذلك : خمسة كتب من كتب الأدب ، وعشرة كتب من كتب الشرع ، وكتب أبقراط وجالينوس فى صناعة الطب وما جانسها مثل كتاب الحشائش لذيسقوريذس ، وكتب رُوفس وأريباسيوس وبولس ، وكتاب الحاوى للرازى ، ومن كتب الفلاحة والصيدلة أربعة كتب ، ومن كتب التعاليم المجسطى ومداخله وما انتفع به فيه ، والمربعة لبطليوس ، ومن كتب العارفين كتب أفلاطون وأرسطوطاليس والاسكندر وثامسطيوس ومحمد الفارابى وما انتفع به فيها ؛ وما سوى ذلك إما أبيعه باى ثمن اتفق ، وإما أن أخزنه فى صناديق ، وبيعه أجود من خزنه » .

وجدير بالذكر أن ابن رضوان المسلم اكتفى بذكر الكتب الاسلامية اجمالا وتادية للواجب بينما فصّل ذكر الكتب المنقولة عن اليونانية واحداً واحداً .

لا حاجة لنا بايراد تفاصيل اطراء ابن رضوان عن نفسه ومديحه لعمله اليومى ووصفه لمحاسن ترتيب بيته ، ولكننا نذكر آخر أمره (عن ابن أبى أصيبعة) :

« كان قد أخذ يتيمة رباها وكبرت عنده ، فلما كان فى بعض الأيام خلالها الموضع وكان قد ادخر أشياء نفيسة ، ومن الذهب نحو عشرين ألف دينار ، فاخذت الجميع وهربت ولم يظفر منها على خبر ، ولا عرف أين توجهت فتغيرت أحواله من حينئذ » و « تغير عقله فى آخر عمره » ، وكانت وفاة ابن رضوان فى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة .

يدل على تفانيه فى حب علوم قدماء اليونان افتخاره برؤية جالينوس فى منامه ، قال :

« وقد كان عرض لى منذ سنين صداع مبرح عن امتلاء فى عروق الرأس ففصدت فلم يسكن ، وأعدت الفصد مراراً وهو باق على حاله ، فرأيت جالينوس فى النوم وقد أمرنى أن أقرأ عليه حيلة البرء فقرأت عليه منها سبع مقالات ، فلما بلغت إلى آخر السابعة قال : فنسيت مابك من الصداع ، وأمرنى أن أحجم القمحدوة من الرأس ؛ ثم استيقظت فحجمتها فبرأت من الصداع على المكان »

هذا ما يكفى تعريفاً بابن بطلان وابن رضوان ، ونتجه الآن إلى المناظرة المشهورة التى قامت بينهما . قال ابن أبى أصيبعة : «وكان ابن رضوان كثير الرد على من كان معاصره من الأطباء وغيرهم ، وكذلك على كثير ممن تقدمه ، وكانت عنده سفاهة فى بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته . وأكثر ذلك يوجد عند ما كان يرد على حنين بن اسحق وعلى أبى الفرج بن الطيب (وكان أبو الفرج هذا أستاذ ابن بطلان ببغداد) وكذلك أيضاً على أبى بكر محمد بن زكريا الرازى . ومن هذا النوع كانت مناقشته لابن بطلان . وقال أيضاً : « وكانت بين ابن بطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة ، والكتب البديعة الغريبة ، ولم يكن أحد منهم يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه ويسفه رأيه فيه .

فاول من ابتدأ المجادلة هو ابن رضوان بمناسبة رسالة لابن بطلان لم تكن موجهة ضده اطلاقاً ، بل دارت حول مطلب من مطالب العلوم الطبيعية كثر الكلام فيه بين أطباء ذلك العصر ، وهو : أيهما أحرّ طبيعة الفرخ أم الفروج ؟ وكان ابن بطلان يعتقد ـ كما اعتقد السواد الأعظم من الأطباء ـ أن الفرخ أحر من الفروج ، ولكن اليرودى الطبيب الدمشقى الذى قد درس مع ابن بطلان على أبى الفرج ابن الطيب كان عايا أطباء مصر بمسألة ألزمهم بها أن يكون الفروج أحر من الفرخ . فجمع ابن بطلان فى مقالته حججا يعضد بها رأى اليرودى وينقض الرأى الصحيح « بقياس المتعلمين تطريقاً لهم ورياضة ... وبقياس العلماء أن يظهر فضلهم فى حلول الشكوك الغامضة . . . وبقياس المذعنين تبكيتا لهم وهجنة » ، وأورد فى آخرها واحداً وثمانين سؤالا تتعلق بالبيض والحضان والفراريج يدعو الأطباء المصريين إلى الاجابة عنها

يظهر ان ابن رضوان ظن نفسه أو بعض تلاميذه مقصوداً بملاحظة من ملاحظات ابن بطلان فى رسالته هذه فاجاب عليها بمقالة لم يبحث فيها عن موضع المشكلة نفسها أو يرد على أدلة المعايا ؛ بل نجده فيها أقرب إلى السفسطة والطعن منه إلى أصول الجدل العلمى .

وحسبنا أن نلتقط من مقالة ابن رضوان هذه موضعا يذكر فيه المزايا التى لا يخلو منها الطبيب الكامل ، قال : «وقد بين جالينوس ان الطبيب فيلسوف كامل ، وانه من قصر عن ذلك فهو متطبب لا طبيب . والفيلسوف الكامل هو الذى قد حصل له العلم التعليمى والطبيعى والالهى والمنطقى ، فالطبيب هو الذى حصل كل واحد من هذه على الكمال »

لم يقتنع ابن رضوان بهذه المقالة بل ألف رسالة أخرى ضد ابن بطلان يمكننا الحكم بانها لم تحتو الا هجاء وذما . فلم يستطع ابن بطلان ان يترك الأمر عند هذا الحد ووجد نفسه مضطراً الى رد مفصل هو من أظرف الكتب العربية ومن أبدعها سماه «المقالة المصرية» عَرَجَ فيه عروجا عليا فائقا يقصد به فضح آراء ابن رضوان كلية . يشتمل على مقدمة وسبعة فصول . يعتذر ابن رضوان فى المقدمة إلى خصمه بأنه انما ألف كتابه هذا امتثالا لرغبة بعض الجهات الجليلة ، ويناشده بإله السماء وتوحيد الفلاسفة ، ان يجيبه بقلب طاهر نقى خال من درن الغضب ؛ « فثامسطيوس يقول : قلوب الحكماء هياكل الرب ، فيجب أن تنظف كما تنظف بيوت عبادته . وفيثاغورس يقول : كما أن العوام تظن ان البارى تعالى فى الهياكل فقط فتحسن سيرتها فيها ، كذلك يجب على من علم ان الله فى كل مكان أن تكون سيرته فى كل مكان كسيرة العامة فى الهياكل » . أما الفصل الأول فهو فى العلل التى لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصحف ، إذا ما كان قبولها للتعليم واحداً ، وهذا عكس مازعمه ابن رضوان الذى ، كما لاحظنا ، لم يدرس هو نفسه على أستاذ بل تعلم بالمطالعة فقط . والدليل السادس منها يوضح لنا جيداً مقدار الصعوبات والمشكلات التى تلقاها أولئك العلماء الناطقون بالضاد عند دراستهم للكتب العلمية اليونانية : « يوجد فى الكتاب أشياء تصد عن العلم قد عدمت فى تعليم المعلم ، وهى اشتراك الأسماء ، والتصحيف العارض من اشتباه الحروف بعدم النقط . . . وسقم النسخ ورداءة النقل . . . وذكر ألفاظ مصطلح عليها فى الصناعة ، وألفاظ يونانية لم يترجمها الناقل وهذه كلها معوقة عن العلم . وقد استراح المتعلم عن تكلفها عند قراءته على المعلم » . والبيان السابع ينبنى على اجماع المفسرين أن فصلا من فصول أرسطو لو لم يسمعه ثاوفرسطس وأوذيمس من المعلم نفسه لما فهم قط من الكتاب . فاما الفصل الثانى فهو فى أن الذى علم المطالب من الكتب علما

رديئا ثار عليه باعتقاده أن الحق محال شكوك يعسر حلها . والفصل الثالث فى أن اثبات الحق فى عقل من لم يثبت فيه المحال أسهل من اثباته عند من ثبت فى عقله المحال . أما الفصل الرابع فهو فى أن من عادات الفضلاء إذا قرأوا كتابا من كتب القدماء ألا يقطعوا فى علمائها بظن دون معرفة الأمر على الحقيقة ، يتضح فيه احترام ابن بطلان للعلماء الأقدمين من اليونان ومن بعدهم كل الوضوح . قال : « إن من عادة القدماء إذا وقفت عليهم المطالب ، ولاح لهم فيها تباين وتناقض ، أن يعودوا إلى التطلب ، ولا يتسرعوا إلى افساد المطلب . فان ارسطو بقى يرصد القوس الكائن عن القمر أكثر عمره فما رآه إلا دفعتين ؛ وجالينوس واظب على تطلب السكون الذى بعد الانقباض سنين كثيرة إلى أن أدركه . . . وشيخنا أبو الفرج عبد الله بقى عشرين سنة فى تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضا كاد يلفظ نفسه فيه . وما منهم رحمهم الله إلا من أنفق عمره فى العلم طلبا لدرك الحق . هذا والذى فى عقولهم مما بالفعل أكثر مما بالقوة ، فان كنا وما بالقوة فينا أكثر مما بالفعل أخلدنا إلى الطعن عليهم ضحك الحق منا وخسرنا أشرف ما فينا . ولذلك يجب على كل نسمة عالمة دونهم فى المرتبة إذا رأت أقاويلهم متباينة ألا تقطع بقول فيهم إلا بعد الثقة » . ثم أورد المؤلف أمثلة كثيرة من كتب أرسطو وجالينوس وابقراط وأضاف إلى كل هذا مع صغر شانه بقياس تلك الطائفة المعدودة الدفاع عن نفسه فى مسألة وصف التدبير المبرّد بمصر خلافاً لبغداد ، وحجته اختلاف الهواء . يقول فى خصائص بغداد : « بغداد بلد شمالى ليس بكدر الماء ، ولا مختلف الأهوية ، ولا تنقطع عنه الأمطار فى الشتاء ، بل قد ينزل فيها الثلج من السماء ، ويجمد لكثرة البرد شطا دجلة وتزيد مياهها عند زيادة المياه ، وتأتى فواكهها وأزهارها فى أوانها من فصول السنة ، لا يكاد يرى فيهم مقشور ولا جرب ، ولا من به ضيق نفس ولا حكة إلا فى الندرة . أرضها قطب اقليم قال فيه أرسطو إنه ينبت الأذكياء ، قلما اختار أهله للنسل من جُلب من البلاد الجنوبية ، فلهذا أوجههم على الأكثر يبعض مشربة حمرة ، وأخلاقهم طاهرة ، وطباعهم كريمة ؛ ليست أرضها فى وهدة فتحرقها الشمس وتغرقها كثرة المياه وهى من أسباب العفونة نعم ، ولا فى غربها بحر ولا فى شرقها جبل فى سفحه مقبرة وتتراقى منها الأبخرة ، وتعكسها الريح الغربية إلى المدينة ، لكنها فى بسيط من الأرض مستو ، جهاتها مكشوفة للشمس والرياح الأربع ، وأهلها مع هذه الخصال المعدة المضادة لمصر محتاجون من التدبير المبرد أقل مما يحتاج اليه أهل مصر وما والاها ، والمصريون محتاجون إلى أكثر منه كثيراً . فلهذه العلل عدلت بهم عن الأشياء الحارة إلى الأشياء الباردة على موجب قانون الصناعة . وإذا كان عذرى قد اتضح بادنى عناية ، وبان خطل من عجل فى تغليطى من غير ارتياء ، فما ظن الشيخ باناس يجرون فى العالم مجرى الأنجم الزهر ، أبصارنا عند بصائرهم تجرى مجرى بصر الخفاش عند عيون العقبان فى ضوء النهار ، لاسيما المؤيد أبو زيد حنين بن اسحق الذى منح الله البشر علوم القدماء على يده ، فذوو العقول الى اليوم فى ضيافته يمتارون من فضله ويعيشون من بره » .

ويزعم ابن بطلان أن عمل خصمه تقليل من ذلك الإحترام الواجب لسلف العلماء كابقراط وغيره من جهابذة الفن ، كما أن إهمال كتب الأولين تقود ولا شك إلى هلاك المرضى . يؤيد ابن بطلان قوله هذا بما جرى بينه وبين بعض تلامذة ابن رضوان ؛ فلذلك ينبغى لابن رضوان أن يعلم الشبان تعليما صحيحاً ولا يشيع « عند الأحداث تخبط الاسكندرانيين فى تفاسيرهم وجوامعهم للكتب الست عشرة ، ومنهم اصطفن ومارينوس وجاسيوس واركيلاوس وانقيلاوس وبلاذيوس ويحيى النحوى المنجد البطل المحب للتعب . ولعل الشيخ يتعذر عليه معرفة أسمائهم على الحقيقة بالعربية . وهؤلاء مفسرو كتب الصناعة الطبية ليت شعرى كيف يذمهم فى عمل جوامع كتب فسروا فصوصها وعرفوا نصوصها » ثم يجىء الفصل الخامس فى مسائل مختلفة ، والفصل السادس فى تصفح مقالة ابن رضوان الهجائية التى قال فيها على سبيل المباهلة أن يساله ابن بطلان ألف مسالة ويساله هو مسألة واحدة . قال ابن بطلان جواباً عن هذه المقالة إن الخطباء والأطباء والفلاسفة لكل واحدة من تلك الفرق طريقة تسلكها فى المحاورة ، وأورد لكل واحدة من تلك الطرق أمثلة من تاريخ الآداب اليونانية ؛ أما طريق ابن رضوان فهو - كما زعمه ابن بطلان - هجاء محض من غير وزن وقافية .

أما السب بقبح الخلقة الذى قد اجترأ ابن رضوان أن يوجهه إلى ابن بطلان فيرده هذا باوفى الذكاء والفطانة ذاكراً أقوال سقراط وأفلاطون وجالينوس ؛ مورداً بعض أعلام الآداب العربية تجردوا من جمال الشكل مثل الجاحظ وعبد

بني الحسحاس ، وفى النهاية يستفتى ابن رضوان عن خلقه هو نفسه قائلا : « لو أن رجلا استفتى بفتوى نسختها : ما يقول الشيخ وفقه الله فى رجل أسود اللون ، مضطرب الطبيعة والكون ، غليظ الشفتين ، منتشر المنخرين ، جاموسى الوجه ، بقرى العينين ، قليل الأنصاف ، محب المراء والخلاف ، قلق المشية جهر النغمة ، يفتينا فى ذلك مأجوراً من الله ، للزمه أن يفتى بما نسخته : الجواب ومن الله المعونة : النفس الفاضلة تابعة لأشرف كيفيات الهيولى فهى توجب عن اللون المشرب حمرة وعن التخاطيط الخبيثة الأخلاق الكريمة ، وهذه المعددة هى اضدادهذه ، فالنفس التابعة لها غير فاضلة . وكتبه على بن رضوان على مذهب القدماء وبحسب تفسير الصناعة الصغيرة »

وبعدئذ يدافع ابن بطلان عن حنين ابن اسحق فيما يرميه به ابن رضوان . فان المسئلة الوحيدة الجديرة بالأعتبار تتلخص — قال — فى اختلاف بين حنين وجالينوس في الظاهر فقط ، كما أن الاختلاف بين أبى حنيفة من جهة وبين أبي يوسف ومحمد ابن الحسن من الجهة الأخرى فى نكاح الصابئين وأكل ذبائحهم اختلاف فى الفتوى فقط

أما الفصل السابع والأخير فهو يتضمن فحص مفردات كثيرة من أغلاط ابن رضوان ، وينتهى بانذاره بحساب يوم القيامة « فسأطالبه فى الحق إذا جلس الله لفصل القضاء واستغاث المرضى وأشخصوا الأطباء ، وحضرت الملائكة الكتبة ، وخرست الألسن الناطقة ، وشهدت القوارير الصامتة ، بدلالتها كأنها على الحالة الحاضرة ، وظهر الغلط ، واعترف الأطباء بالذى فرط ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ... وليتحقق أن ... لنا موقف حساب ، ويجمع ثواب وعقاب ، يتظلم فيه المرضى إلى خالقهم ، ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية بهلاكهم ، وإنهم ليسامحون الشيخ كما سامحته . . . ويتحقق أنهم لا يرضون منه إلا بالحق المبين »

لم يتاخر ابن رضوان فى الرد على ابن بطلان مرتين . فلما وجد نفسه عاجزاً عن النقض الصحيح لذلك الكتاب رجع الى أسلوبه الكريه المعتاد . أما الرد الأول فقد عجل تاليفه قبل فحصه كتاب ابن بطلان كله ؛ وأما الثانى ففيه تلخيص لكل ماجرى بينهما من وجهة نظر مؤلفه ، وغرضه الصريح دعوة أطباء مصر والقاهرة الى مقاطعة ابن بطلان . يقول ابن رضوان فى آخره : « فهذا فيه كفاية فى ان تعجبوا من أمر هذا الرجل ، وتضحكوا منه وتتركوا مكالمته فيما تستانفونه منه ، ولا تلتفتوا إلى شيء يقوله بل تنزلوه بمنزلة إنسان قد خولط ووسوس ، فهو أبداً يهذر ويهذى فلا يستحق ان يرثى له ولا يرحم قط »

هذا غاية ما يسمح لى الوقت به من شرح تلك المناظرة بين الطبيبين الفيلسوفين . حاصل القول أن الخصمين مع كل مالاحظناه بينهما من الاختلاف من جهة النشأة والتربية والبيئة والدين والأخلاق دانا بعلمهما الى الفكرة اليونانية ديناً شديدا

كانا به يعترفان ويفتخران ، يجتهدان فى التشبه بالعلماء الأقدمين ، كما أن علوم الأوائل كانت عنصراً لازماً لمدنية البلاد الاسلامية فى القرن الخامس . هذا هو العصر الأخير لأثر العقلية اليونانية العلمية فى الشرق الأدنى قبل أن تسير الى الاضمحلال التدريجى حتى تتلاشى . فان السلاجقة الذين يوافق ابتداء سيادتهم عصر ابن بطلان وابن رضوان لم يعنوا بتجديد النظام السياسى للناحية الشرقية من عالم الاسلام فحسب ، بل قاموا أيضا بتاييد السنة وبمحاربة كل الحركات العقلية التى يعتبرونها مخالفة لها ، فكان لعلوم القدماء حظ غير موفور ، لأن بعض المحافظين استمروا يسيئون الظن فيها خصوصاً بعد ما انتفع بها القرامطة والفاطميون فى إلباس تعاليمهم الباطنية ظواهر الحقيقة العلمية

ورغماً من هذا فقد جاء فى القرون المتأخرة من حين الى حين بعض علماء مبرزين خلعوا عن أنفسهم تلك الأغلال ، وأظهروا الروح العلمية الخالصة غير ملتفتين الى شكوك من دونهم . من هؤلاء الفيلسوف الاندلسى ابن رشد (المتوفى سنة ٥٩٥) ، والجهبذ موسى بن ميمون (المتوفى سنة ٦٠١) والطبيب المصرى ابن النفيس (المتوفى سنة ٦٨٧) مكتشف الدورة الرئوية للدم ؛ إلا انه للأسف بقى أولئك الأفاضل فى أوطانهم غرباء منفردين لم تقدر آراءهم ولم تنتشر ، على حين كان ابن بطلان وابن رضوان من المعبرين عن الحركة العقلية العامة فى زمانهما التى اشتركا فيها مع رهط كبير من معاصريهما . لم تخل العلوم الأخرى غير الطبيعية والطبية من ذلك التدهور العلمى الذى نشاهده ابتداء من القرن السادس ؛ وهذا حجة ساطعة لقيمة تاثير الفكرة اليونانية على الأعمال العقلية فى كل نواحيها .

ومهما يكن من شيء فان ما تناولناه فى بحثنا هذا يصور لنا صورة واضحة لضحى العلوم اليونانية العربية فى بلاد الاسلام

يوسف شخت